التـــــابو أو اللامساس

يقلم الدكتور عبد الرحمن شهبندر

حدث لى ولرفيق المرحوم السيد توفيق الحلبى أحد المجاهدين الذين استشهدوا فى الثورة السورية الكبرى ، أننا بعد المجازر التى قام بها أحمد جمال باشا السفاح وأعوانه من طغام الاتحاديين، اضطررنا إلى مغادرة دمشق الشام، فوصلنا فى أواخر سنة ١٩١٥ إلى مدينة (الهيت) على نهر الفرات، حيث استأجرنا قارباً وطلبنا العتبات المقدسة: كربلاء، والنجف، والكوفة، لأنها كانت فى ثورة على الادارة العسكرية ، فلم يكن للاتحاديين فيها سلطة ؛ وكان صاحب القارب رجلا من عوام الشيعة من قبائل « المعدان » التى تعيش على الشاطىء واسمه حسين، وهو فى نحو العقد الخامس من العمر، بعين واحدة، ولا يختلف زيه عن زى الفلاحين الاعتياديين فى مصر كثيراً؛ فلما جرى القارب على الماء وقاربت الشمس المغيب، قام وطبخ طعاماً من (الثمن) وهو الأرز العراقى، و(الهرطمان) وهو شبيه بالعدس ، فلما نضج دعانا للاشتراك معه وهو يقول ويقسم الايمان على مايقول: إنه لايتأفأف من الأكل معنا أبداً ! ففاتت هذه النكتة صديقى لأنه كان فى بحر من التفكير، كيف يستطيع أن يأكل من تلك الحلة القذرة والملاعق الصدئة ؟ فشكرت لحسين الملاح تسامحه كثيراً ، وقلت له إنه من أهل العصر البعيدين عن التعصب! وهمست فى أذن رفيقى قائلا : إن إخواننا الشيعة على شاطىء الفرات هم من الغلاة الذين يأخذون بظاهر الآية « إنما المشركون نجس» وهم يحشروننا فى زمرة هؤلاء المشركين، لأننا آمنا بخلافة أبى بكر وعمر، ولم ننتصر لأهل البيت الانتصار اللائق، فنحن والحالة هذه رجس بكل مافى هذه الكلمة من المعانى المستكرهة ؛ وفى الحق إن فى هذا الموقف لشيئاً من المهازل الاجتماعية ، فالملاح كان يحارب وجدانه ويقهر عاداته فيما تنزل إليه من دعوتنا إلى مشاركته فى الطعام، ونحن كنا نفكر فى انتحال الأعذار للنجاة من قدره والخلاص من ملاعقه .

والمقصود من سرد هذه الواقعة ليست المهازل الاجتماعية، وهى كثيرة تحيط بنا فى حياتنا من كل جانب ؛ بل هذا التنجس الذى يشعر به إخواننا الشيعة من كل من خالفهم، شعوراً محمولا على المعنى المادى المحسوس، كما يشعر جماعة غاندى الهندوكيون عند ما يجتمعون بطائفة الأنجاس أو المنبوذين من أبناء وطنهم ولا يقل عددهم عن سبعين مليوناً ؛ فهل أتانا هذا التنجس ياترى

فى جملة ماأتانا من العقائد الباطنية التى تغلغلت فى صدورنا، أم هومظهر من مظاهر التابو التى سنعرض لها فى الكلام الآتى ؟

التابو : فمن عادة (الساويوريين) الدينية، وهم من سكان جزائر (بولينيزيا) فى المحيط الهادى، مثلا، أن الرجل منهم إذا أراد حماية ثماره : كجوز الكاكاو أو غيره ، وضع على الشجرة علامة تدل على نذر هذه الثمار للآلهة فلا يمسها أحد، وهذه العلامة تدعى فى لغة تلك البلاد (تابو) ومعناها فى معظم الأحوال «لامساس» ؛ وقد اصطلح علماء الانسان والاجتماع من الأوربيين على نقل هذه الكلمة بنصها إلى لغاتهم للمعنى الخاص الذى تؤديه ، فالتحريم الذى تفيده هذه الكلمة ليس التحريم الذى نعهده فى الشؤون الاخلاقية وما ترتكز عليه من تحبيب الخير وتبغيض الشر، بل هو تحريم خاص مشوب بشىء من الرهبة والتقديس والتلفف بالأسرار .

وكما يوضع التابو على الأشياء لمنع الاقتراب منها ومسها كما توضع إعلانات الخطر على أسلاك الكهرباء الثقيلة، كذلك يوضع على الكلمات لمنع استعمالها، وعلى الأعمال لمنع إتيانها ، وقد تكون الغاية منه الابتعاد عن النجاسة كما هو الحال فى: تحريم بعض المآكل، ومس جثث الموتى، والنظر إلى الحيض . أما الذين يحق لهم فى تلك البلاد أن يضعوا « التابو » فهم الأمراء أو الكهنة غالباً ؛ وشكل التابو عند البولينيزيين ـ وهم أكثر الناس استخداماً له ـ علامة أو وسم، وينتشر التابو فى الأقوام الابتدائية كثيراً؛ ولكن آثاره لاتزال ماثلة حتى فى أرقى الأمم.

وفيما يأتى مجموعة أخبار عن «التابو» استقيناها من دائرة المعارف البريطانية وغيرها من أمهات الكتب الوثيقة؛ فمن ذلك أن الأمراء البولينيزيين الذين يدعون أن سلسلة نسبهم الكريم تتصل بالآلهة يطلق عليهم الاسم « آدى تابو » أى الأمراء المقدسين، فتفيد كلمة « تابو » هنا تحريماً مقدساً لايجوز مسه، وعلى العكس من ذلك كلمة « نوا » فانها تفيد العموم والاشتراك بدلا من التخصيص والانعزال ، والمثال على ذلك أن المرأة فى تلك البلاد قبل أن تتزوج توصف بكلمة « نوا » أى أنها حرة فى تصرفها ، طليقة يباح لها من العاشقين ماشاءت وشاء هواها؛ ولكنها متى تزوجت أسدل عليها ستار من التابو، فتحرم على جميع الناس إلا على زوجها.

ومن أدق قوانين التابو وأشدها تطبيقاً تابو الأموات ، فالذى يمس جثة ميت أو عظمه أو يشترك فى جنازته يطوق بالتابو، فقد حدث فى بلاد (التونجا) أن واحداً من الدهماء مس جثة أمير فحكم عليه بالحرمان التابوى عشرة أشهر قمرية ، والقاعدة فى بلاد (نيوزيلانده) أن القارب الذى ينقل جثة لايجوز استعماله ثانية، بل يجر إلى الساحل حيث يطلى بالبياض للدلالة على « اللامساس » .

ولا يزال العامة من الناس فى بلادنا يفزعون من لمس الميت ، ويظنون أن فى جثته شيئاً من التحريم الخاص مما يجعله شبيهاً بالتابو البولينيزى، أو ناشئاً عن الفكرة التى بنى عليها، وليس

هذا التحريم قائماً على ما فى الميت من مرض معد، فالخوف من العدوى بالمعنى الجرثومى شىء حديث العهد، بل يظن أن فيه سراً عجيباً يحول دون مسه .

ومن يتجاوز على حدود التابو فجزاؤه عظيم، حتى أن الملك فى جزائر (هاوايى) يعين رجلا من الشرطة ؛ للبحث عمن يغفلون حق التابو ، فيعاقبون بالاعدام إلا إذا كانوا من أهل المكانة أو كانوا كهنة أو أمراء ، ولكن العقاب فى جزائر (فيجى) قلما يكون موتا، بل فى الغالب يكون نهباً ومصادرة فى الأموال والاملاك. والمثال على ذلك أنه لو سقط لوالد ولد فى النار، هو جم الوالد من جميع الأطراف وسلب متاعه وجميع ما يملكه ؛ ويظن بعض الباحثين أن هذه العادة متسلسلة عن قبيلة (الديرى) فى جنوب أوستراليا ، فمن عادتهم أن الولد من أولادهم إذا أصيب بكارثة ضربوا رؤوسهم بالعصى إلى أن يسيل الدم منها على وجوههم ، وهم يظنون أن هذه العملية الجراحية تخفف عن الولد أوجاعه .

ومن قواعد قبائل (المركيزا) أن الرجل إذا ذبح عدوا له حكم عليه باللامساس عشرة أيام، يحرم عليه فى غضونها مس امرأته والاشتغال بالنار، فلا بد له والحالة هذه من طاه يطبخ له طعامه ، وأى رجل من أهل المكانة حمل زاده على ظهره تسربل هذا الزاد بالتابو فأصبح محرما على جميع الناس، إلا على صاحبه، لأن حمل الأشراف زادهم على ظهورهم «متوب» ، فكأن «التتويب» ينتقل بالعدوى من الاشخاص إلى الاشياء . والرؤوس ومايتدلى منها من الشعور، ولاسيما رؤوس الامراء، تتمتع بالشىء الكثير من اللامساس، فلمسها يعد إهانة لاتغتفر، وإذا مس أمير رأسه بأصبعه فعليه أن يقربها من خيشومه من غير إبطاء ليستنشق منها القداسة التى علقت بها من الرأس .

وتجوز إزالة التابو ورفع الحجر المنصوب على الاشياء ففى بلاد (التونجا) إذا وقع رجل فى التابو بسبب مسه رأس أمير مثلا، فلا يحل له أن يمس الطعام مالم يمسح يديه باخمص أمير أرفع من الامير الملموس ، ثم عليه أن يبلهما بالماء، وإذا تعذر فبعصير الموز .

وقصارى القول: إن التابو على نوعين اثنين: نوع يكسب صاحبه نفعا، ونوع يجلب له ضرا، فذاك يجعل الاشخاص والاشياء طاهرة مقدسة، وهذا يجعلها رجسة مستقذرة .

وعلى القارىء أن يبحث عن أصل التابو فى الأوضاع الدينية لا فى الأوضاع المدنية، فهو ليس من عمل المشترعين ، بل تفرع ونشأ على مهل من العقائد الاستراحية الخالية، يعنى من عقائد «الانيميزم» وقد ساعد على انتشاره وتأييده، فيما بعد، طمع الامراء والاشراف والكهنة، وما لهم من المصالح، خذ على ذلك مثلا: إن بعض اللحم يقسم عند الاسرائيليين إلى (طاريف) و(كاشير) وقد يكون لهذا التقسيم سبب غير ماهو معروف، إلا أن الرسم المالى الذى يتقاضاه خدمة الدين

على الذبائح للتفريق بينها، قد ساعد كثيراً على بقاء هذه السنة عند اليهود حتى فى أرقى المدن الاوربية والاميركية .

على أن الخدمة التى أداها التابو للامراء والكهنة، لم تحل دون انتفاع المجتمع به انتفاعا جزيلا، فعلامة اللامساس التى توضع على الشجرة لحماية ثمرها، قد تكون أساس الشعور بحق التملك، وكذلك الحال فى اللامساس المنصوب على النساء المتزوجات، فقد يكون أساس شرعة الزواج ، وقس على ذلك بعض الأوضاع الاجتماعية الأخرى التى ضاعت علينا مآخذها؛ ولكنها من غير شك نشأت فى الأصل عن فكرة التابو الخالية .

وفى بعض الكتب السماوية المنتشرة يوجد الشىء الكثير من قواعد اللامساس، فقد جاء فى الأصحاح السادس من سفر العدد من التوراة، كلام مسهب كأنه طلاسم السحرة، عن شىء يدعى النذير ، وهو كما قالت دائرة المعارف البريطانية : يشبه التابو البولينزى جد الشبه ؛ فقد أمر موسى أن يقول لبنى إسرائيل: إنه إذا انفرز رجل أو امرأة منهم لعمل نذر للرب، فالنذير يجتنب الخمر والمسكر والخل المتولد منهما، ولا يشرب من نقيع العنب، ولا يأكل عنبا رطبا، ولا يمر موسى الجلاقة على رأسه، ثم إنه يربى خصل شعر رأسه إلى نهاية الأيام التى انتذر فيها للرب؛ ويكون مقدسا، ولا يأتى إلى جسد ميت ؛ أما إذا مات عنده ميت بغتة فنجس رأس انتذاره؛ فانه يحلقه يوم طهره فى اليوم السابع ؛ وينتهى النذر الاسرائيلى على طريقة التابو البولينيزى؛ وذلك بأن يحلق النذير رأسه عند مدخل خيمة الاجتماع المقدسة ، فيأتى اليه الكاهن ويضع على يديه طعاما ؛ وكلا هذين العملين يعد تجاوزا على التابو عند البولينيزين .

ومن العادات المستحسنه التى جرى عليها اليهود ومن بعدهم المسيحيون تجنب القسم بالله، وهذا مأخوذ من الكتاب المقدس، وليس من الصعب تدرجه من قواعد اللامساس، فقد عرفنا مثلا أن البولينيزيين لا يجلببون أربابهم وأمراءهم بالتابو فقط ، بل يتوسعون فى ذلك إلى جميع ما يتعلق بهم حتى إلى الأسماء والألقاب التى يحملونها، فلا جرم أنهم محرم عليهم أن ينطقوا بهذه الأسماء، كما يتورع الاسرائيلى عن القسم باسم (يهوه) ؛ وقد ارتقى هذا التخصيص حتى صار من المعيب فى المجتمعات الاوربية الراقية القسم بأى شىء إجمالا ولو بالشرف؛ وأذكر فى عهد السلطان عبد الحميد أن الناس تهيبوا ذكر اسمه واسم أخيه المخلوع السلطان مراد ، فكانوا يطلقون اسم حميد بدلا من عبد الحميد ، ومرآت افندى بدلا من مراد افندى ، وقد حرم أحد أعيان الشام رتبة سنية للاسم الذى يحمله ؛ وهذا كله شبيه بالتابو البولينيزى؛ ومن مس جثة ميت عند اليهود فقد عد نجسا لمدة سبعة أيام، وتنتقل نجاسته إلى كل شىء يلمسه، وعليه فى ختام الايام السبعة أن يغسل لباسه ويستحم بالماء ليتطهر ؛ وكذلك النفساء فهى عندهم نجسة كما هى مجلببة بالتابو عند البولينيزين ، فلا يجوز الاقتراب منها، وهذا حال المرأة فى الطمث أيضا .

أما السبت فله عندهم قواعد دقيقة تتعلق بالمحافظة عليه والاستراحة فيه كما(استراح الرب فى اليوم السابع) من خلق الخليقة، وهذه القواعد شبيهة بالتابو بالمعنى التحريمى، فقد حرم على اليهود فيه: العمل، وإشعال النار فى المنزل، وطبخ الطعام ، والخروج من المنازل إلى مسافات معينة ؛ وفى التاريخ أن بومبى الكبير تغلب على اليهود فى القدس، لأنهم لم يسعوا لمقاومته فى يوم السبت، وأن أنتيوكرس الرابع السلوقى افتتح القدس عنوة لأنهم راعوا يوم السبت أيضا فلم يدافعوا عنها ، وهكذا خسروا موقفين فاصلين لعقيدة لامساسية .

ومع أن المسيح اجتاز فى السبت الزرع وقطف تلاميذه السنابل وهم سائرون وراءه، وأجاب الفريسيين لما غمزوه على تهاونه هذا وقلة اكتراثه بقوله:« السبت إنما جعل لأجل الانسان، لا الانسان لأجل السبت » فاننا نرى الامم المسيحية، ولاسيما البروتستنتية منها تحافظ على السبت وهو يوم الاحد بالطريقة المثرية ، محافظة اليهود على سبتهم، حتى إننى فى سنة ١٩٢٤ كدت أبيت على الطوى أنا وزوجى، لأننا عدنا إلى لندن فى يوم الاحد متأخرين، فوجدنا المطاعم مقفلة «حرمة» لليوم الذى استراح فيه الرب، ومن المستغرب أن تكون هناك اليوم قضية تتعلق بالسينما والتشخيص فى يوم الاحد، وتحريم هذا وتحليل ذاك، كأن الممثل البارع يجوز له أن يظهر فى ذاك اليوم على ستار السينما، ولكن لا يجوز له أن يظهر على مسرح التمثيل، مما يدل على أن ليس الشرق وحده الذى يشتغل بالسفاسف، بل إن أعظم عاصمة فى أوربا فى القرن العشرين تبحث فى التابو وتشتغل بشؤون اللامساس .

وقد تحقق من الوجهة الاجتماعية، أنه كلما كثرت الموانع التابوية وانتشرت أصول اللامساس كانت المدنية وضيعة، لأن ذلك يدل على حاجة العائشين تحت كنفها إلى الحدود والحواجز. قال الاستاذ ديلى فى كتابه « الاجتماع » : « والمدنية المبنية على التحريم ، هى بالضرورة مدنية منحطة وابتدائية ، ويدل التابو على عصر قاصر لاعقل له ، وهو يحسب أن الناس بلغوا من الجهل والشر أنهم لايقومون بالحق ، لذلك يجب أن يمنعوا من عمل الشر بأمر أناس أرشد منهم عقلا وأحسن طينة »

عبد الرحمن شهبندر

تحـــــــذير

يحذر صاحب « المعرفة » حضرات : الكتاب ، والأدباء ، وأصدقاء « المعرفة » ، ومشتركيها جميعاً ، وأصحاب المسارح وغيرها ، من اعتماد أى شخص يتقدم إلى حضراتهم بدعوى تمثيلنا ، أو الاتصال بنا ، أو العمل معنا ، ما لم يحمل كتابا (مرفقاً به صورته) وموقعاً عليهما من صاحب المجلة ومحررها المسئول .

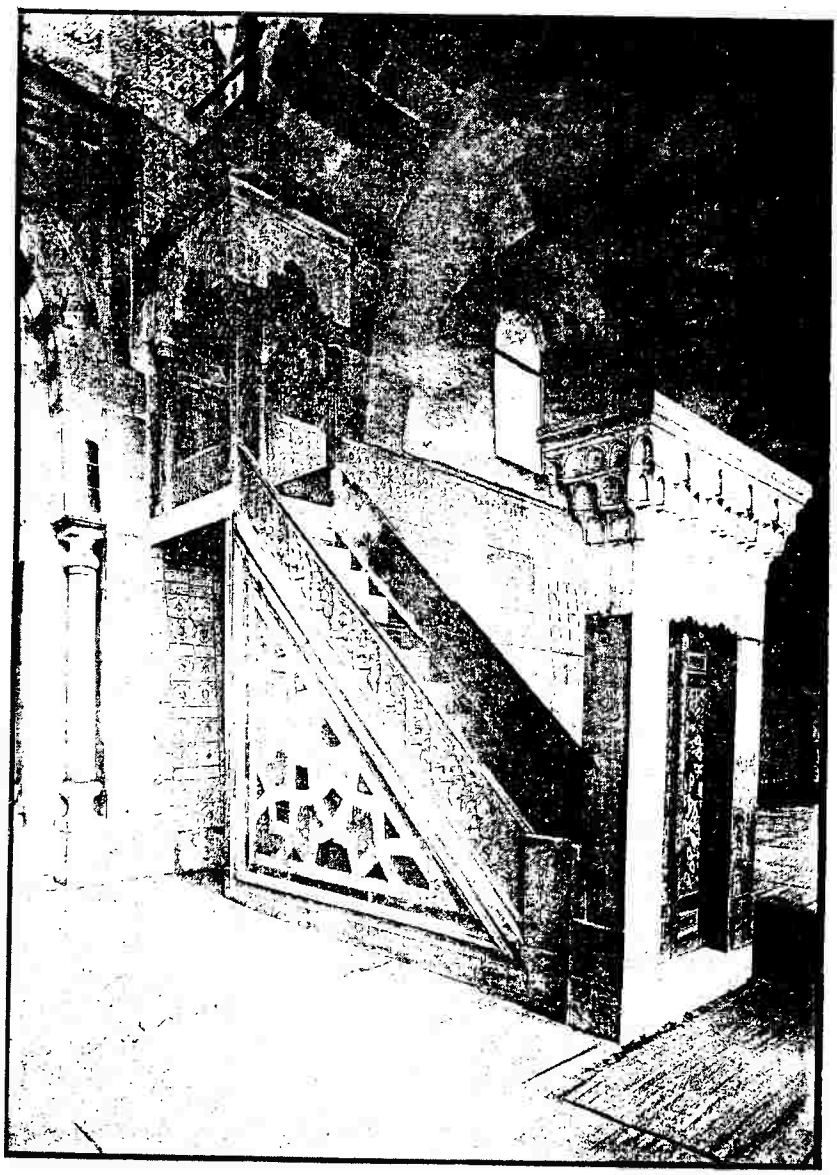

(رسم رقم ١ : منبر مسجد آق سنقر)